الكتاب الخامس

الطيار في الجنة

الحرية لا تمنح ولكنها تؤخذ بأعز التضحيات

أحمد عصمت

الباب الأول

العام الجديد

أيها الفتيان :

سواء منكم الكادحون فى حقول الوادى وصحرائه ، أو المنصرفون إلى التحصيل فى جامعاته ، أو العمل فى مصانعه ، أو المتعبدون فى صوامعه أو جوامعه ، أو المحلقون فى سماء مصر الصافية أو فى الخارج، على متون طائرات مصرية ، من صنع بلادكم ، أو الضاربون فى عرض البحر فى سفن مصر الحاملة تجاراتها ومصنوعاتها إلى أمم العالم ، وسواء الناظرون منكم إلى سماء مصر الصافية التى تربط البصر والفكر بصفاء الله ، أو الجالسون إلى مدافىء الشتاء عندما يتهور الليل أو يتنفس الصباح : اقرأوا الكلمات التالية منعمين النظر ، مسترسلين فى التأمل ، فى خشوع وتهجد ...

فإذا ترقرت الدموع فى مآقيكم ، أو انهلت على خدودكم ، فحذار أن تكون دموع الجزع لمن خلدتهم مصر من الأبطال والشهداء ، شهداء دينكم ، دين هذا الوطن الذى عبدتم فيه معنى من معانى بارئكم وحاميكم . بل لتكن دموع المتعبدين لله وللوطن .

ففيما يلى ذكريات شهادة ، وفناء فى الله وعبادة .

ويا فتيات مصر :

اقرأن هذه الأسطر قراءة كل ما هو سماوى ربانى ، وأقرئنها أبناءكن وأحفادكن . عابدات قانتات :

لقد سلت سيوف الإمبراطورية البريطانية التى تتحكم فى القارات الخمس على شباب أمتكم فى منطقة القناة . وكانت أمم الأرض تبصر بريقها كلما طيرت الأمواج أنبـــاء استشهادهم فى جوف الليل أو بكور النهار .

وفى حين كانت مصر تخب فى هذه الحرب الظالمة وتضع، ويلقى أشبالها الحتوف من نصال السيوف ، هزت الحضارة المعاصرة لنا أكتافها ، والجريمة الكبرى ترتكب على أعينها ، فى الأبرياء وفى الشهداء ، وفى الحضارة الإنسانية جميعها .

لن نعيد على أسماعكم ذكريات نقشت فى شغاف كل قلب ، وجرت فى كل دم، وستنحدر إلى أبناءكم وأحفادكم مع الدم الذى يجرى فى أصلابهم، ولكننا نقص عليكم بعض القصص ، عن بعض أيام ، لترووا الأشياء كما رأيناها وكما عاش فيها شهداؤنا يوما بعد يوم ، ولتنقلوا إلى الأجيال المقبلة عظات تلكم الايام وروح عظائمها .

اذكروا دائماً فى معارض الشجاعة ، أن التقـــاليد الحقيقية الأفعال النابهة ـ على ما يقول بول ڤاليرى ـ ليست فى أن نعيد ما صنعه الآخرون بالذات ، وإنما هى فى إحياء الروح الذى صنع هـــذه العظائم والذى سيصنع أمثالها فى الأزمان التالية . »

ولقد تكون المثل العليا من الفعال الباهرة ، كالأنجم الزاهرة ، لا ترقى إليها المعارج، لكن فيها لدى البأس ، وعند السرى ، دليلا مرشداً .

والأمم كالرجال لا تهرم ولا تهزم ، ولا تضل فى المفازات ، إلا إذا فقدت نجومها الهادية من مثلها العالية . وإذا كانت العبقريات لا تقلد فهى دروس تدرس ، فى أمثال تضرب ، ليهتدى بهداها .

أمامكم فى مستقبل الوادى صفحات بيض لم تسطر بعد . فاكتبوها فى ضوء ما علمكم أبطالكم .

اكتبوها فى الدفاع عن الوطن تكونوا قرة الأعين الساهرة عليكم من الشهداء كالأنجم الثاقبة تراقبكم من السماء .

اكتبوها فى معارك الحروب

اكتبوها بكل إقدام فى ميادين الحضارة كالصناعة والتجارة والزراعة والطب والعلم والمال وكثير سواها .

اكتبوا فى الطب سطوراً جديدة من تضحيات الأفراد فى سبيل الجماعة . وشعبنا مريض يترقب من يطب له ويداوى أدواءه .

اكتبوا فى العلم ، الاختراعات الحديثة والأبواب الجديدة من تضحية الجسم فى سبيل الروح ، وتضحية النفس الواحدة فى سبيل الملايين ... وليس كالقدوة حافز ينفذ من القلب إلى القلب ويحبب العلم بالعمل والعمل بالعلم .

اكتبوا فى الاجتماع والاقتصاد، صفحات من الشجاعة وإنكار الذات، والعزوف عن الملذات ، وروح الفريق فى العمل ، فيد الله مع الجماعة .

اكتبوا بل اعملوا . فى أضواء مثلنا العليا التى تغمر الأرجاء بالضياء ، وعندما تصنعون مخلصين ستكون يد الله فوق أيديكم .

والكلمة الأخيرة لم يقلها أحد بعد . فمصر تنتظر .

لا تنوا ولا تقنطوا مخافة أن تفشلوا وتذهب ريحكم ، فمن معارج

الحضارة معـــارك الطلائع . سواء منها معارك الانتصار أو ما يشبه إلى البعض أنه بوادر هزيمة أو هزات قلق .

وعندما تدعو السماء الثرى إلى التقدم ؛ تهتز الأرض وتربى ، كمثل الدف. فى الشتاء والحياة فى الشجر ، تسير الدنيا بهما إلى الربيع فى مواكب صاخبة ، من المحاولات المتعاقبة ، فى أسابيع الزوابع ؛ وكمثل ذلك جسر الحضارة تجرى عليه ســـنة التقدم بالوثبات الموفقة ، أو الكبوات المتعالية ، أو السقطات المتتالية ... إلى الأمام .

وحياة الأمم كحياة الأفراد ، وككل شىء ، تؤخذ بجمعها لا بجزء منها ولا بجزء . والأمم لا تنتصر بالحيلة ولا بالانتهاز ولا باختراعات الساسة . ولكنها تنتصر يوم توهب لهـــا إرادة الانتصار ، فتكافح الكفاح المرير الشاق . فإما بلغت غرضها ، وإما كان الكفاح فى ذاته نصراً لها .

رددوا أيهـــا الفتيان والفتيات ذكريات القتال . فقد أصبح لكم ـ هنالك ـ فى مكان الاستعمار ، مقابل من آيات الفخار ؛ واذكروا فى نفس المقام نفس الكلام الذى وجهه « أبراهام لنكولن » إلى رفاقه على أرض معركة « جتسبرج » حيث مقابر الجند الذين قضوا على نظام الرقيق وزمان الاستعباد . فكأنما هذه الكلمات لنا . أو قيلت ها هنا :

« من سبع وثمانين سنة أنشأ آباؤنا فى هذه القارة أمة جديدة قامت على الحرية وكرست حياتها للمبدأ القائل إن الناس جميعا خلقوا متساوين . »

« ونحن الآن مشتبكون فى حرب أهلية كبرى تمتحن هذه الأمة ، ليظهر ما إذا كان فى وسعها أو وسع أى أمة أخرى قامت على هذا الأساس وكرست نفسها له ، أن تعيش طويلا »

« وها نحن أولاء قد اجتمعنا فى ميدان عظيم من ميادين هذه الحرب.

وجئنا لنكرس جزءاً من هذا الميدان ليكون المثوى الأخير لأولئك الذين ضحوا بأرواحهم لكى تحيا الأمة . وإنه لمن اللياقة والسداد أن نفعل ذلك ،

« على أنه من وجه أعم لا يمكننا أن نكرم هذه الأرض أو نضفى عليها قدسية أخرى فإن الرجال الشجعان ـ الأحياء منهم والأموات ـ الذين قاتلوا هنا قدسوها تقديساً أعظم من أن نزيد عليه أو ننقص منه بقوتنا الصغيرة . »

« سوف لا يأبه العالم كثيراً أو يذكر طويلا ما نقوله هنا . ولكنه لن ينسى ما فعله هؤلاء الرجال هنا . ولذلك يجدر بنا نحن الأحياء ، أن نكرس أنفسنا للعمل النبيل الذى ساهم فى سبيل تقدمه أولئك الذين حاربوا هنا . نعم يجدر بنا أن نكرس حياتنا للقيام بالواجب العظيم الذى لا يزال أمامنا . فنستمد من هؤلاء الأموات المكرمين إخلاصاً متزايداً للمبدأ الذى بذلوا فى سبيله أكثر ما يمكن من إخلاص . ونعقد العزم هنا على ألا تذهب أرواح هؤلاء الأموات سدى ، وعلى أن الحرية بفضل الله ستبعث فى هذه الأمة بعثاً جديداً . وألا تمحى من الأرض الحكومة التى يقوم بها الشعب فى سبيل الشعب » .

* * *

كانت صلوات الشكر لله العلى القدير تتصاعد من قلوب البشر فى ذكرى ميلاد السيد المسيح ، وفى ليلة العام الجديد من سنة ١٩٥٢ ، ذاكرة بالخشوع والخضوع إله المرحمة ... فى حين كانت دماء مصر تسيل أنهاراً فوق ثراها .

ان نشق عليكم بالتفصيل الطويل ... فإليكم صورة مصغرة لما قاسته مصر فى بضعة أيام ومائة من تاريخها ، حاربتها فيها إنجلترا بشتى أسلحة العصر ، فلم تكسب إنجلترا ولم تخسر مصر .

بلى . خسرت إنجلترا خسار من إذا واثق غدر ... من ينبش النساء ويقتلهن ، ويقتل الأطفال ، ويقتل جنود البوليس ، ويقتل الراهبات ، ويشد بالسيف على تلاميذ الجامعات ، ويصنع المثلات بالأسرى .

وكسبت مصر ثقتها فى قواها يوم ثبت النفر الذين ثبتوا ، فلا تهزم الأمم ولا الأفراد إذا لم تسلم نفسها بالانكسار ، فإذا سلمت نفسها فقدت روحها فوق فقدان معاركها : ـ

أول ينابر = القائد العام الإنجليزى فى منطقة القنال يعلن تصميم بريطانيا على تنفيذ حلف الدفاع عن الشرق الأوسط وعزمها على الاحتفاظ بمركز قيادتها فى القنال إلى أن تشترك مصر فى هذا الحلف .

فى أخبار ذلك اليوم أن الفدائيين حاولوا اغتيال البريجادير « اكسهام » فى منطقة الاسماعيلية بإلقاء ثلاثة قنابل يدوية على سيارته .

وكان الخبر آية تمرس الفدائيين بتحسس الأخبار ، إذ استطاعوا أن يتخذوا من أنفسهم رصداً لحركات قواد العدو .

ولو قد أصيب « اكسهام » لكان أول « بريجادير » إنجليزى لقى الموت على أيدى بنى الوطن ، لكن هذا السبق لم يكتب يومذاك لأحد ... وإنما أجلته السماء ليوم موعود .

وفى اليوم نفسه ، نشرت الصحف صوراً لجنازة « عادل محمد غانم » الطالب بكلية الطب محمـــولا على أعناق زملائه بعد أن عاد شهيداً من ميادين القناة .

سيتساءل البعض كيف كانت تقع هذه الأنباء فى فاتحة العام على الشعب الإنجليزى ، لو نظر إلى شبابنا وطلابنا ، وهم يهبون أرواحهم لأشرف قضية ، قضية الحرية ، نظرته الى شبابه وطلابه ... !

أما نحن فقد كنا ندرك كيف تقع الأنبـــاء مواقعها لدى الشعب الإنجليزى الذى حارب الرق والاستعباد إذا وقعا على رجل واحد ... وما زال يحارب لحساب الرق والاستعباد اذا وقعا على شعب كامل ...

٢ من يناير = نسف الخط الحديدى البريطانى - قنابل مولوتوف - قتل عشرة جنود إنجليز وإصابة كثيرين .

٣من يناير = التوسع فى التدريب العسكرى - إنشاء مدارس وساحات للتدريب . وإعـــلان الحكومة والوزير المختص بشئون كتائب التحرير أن لا تدريب للفتيات على الحرب بل سيكون تدريبهن على العناية بالجرحى والتمريض .

تدمير مستودعات البترول بمعسكرات جنيفه والتل الكبير - ندب الأمم المتحدة « مستر راو » المحقق الدولى للتحقيق فى إجبار الإنجليز للعمال على العمل برغمهم .

٤ من يناير = معركة دامية بين الإنجليز والبوليس المصرى والأهلين فى السويس تستمر خمس ساعات ؛ ٢٠ قتيلا و ٤٠ جريحا من البريطانيين . إصابة ١٨ من البوليس والأهلين بجراح .

نسف محطة المياه البريطانية فى معسكرات الإشارات وإحراق دبابتين ومصفحتين وقتل جنودهما .

احتجاج السفارة البريطانية على السلطات المصرية لإنذارها تاجراً إنجليزياً بمغادرة البلاد لتعاونه مع الإنجليز بالقناة .

٥ من يناير = الإنجليز يحاصرون السويس ويعتدون عليها بقوات ضخمة تدعمها عشرون دبابة ؛ ٢٥ قتيلا و ٥٥ جريحاً من البريطانيين ، استشهاد خمسة من المصريين و ٤٤ جريحاً — وابل من رصاص

الإنجليز ينهمر على المستشفى الأميرى وعلى سيارات الإسعاف وناقلة المرضى .

٦ من يناير = الإنجليز يعزلون منطقة القنال عن الأراضى المصرية قطع المواصلات الحديدية عنها . منع دخول الصحف إليها . نسف نادى الضباط وحرق سيارتين بريطانيتين وقتل ستة من جنودهما .

الإنجليز يحرقون خمسة منازل ، مصرع ثمانية من ضباطهم .

٧ من يناير = مصرع ثمانية عشر بريطانيا من سلاح الطيران فى كمين أعده الفدائيون ، الإنجليز يحتلون للبقية الباقية من منطقة كفر أحمد عبده ويجلون سكانها عنها بالقوة .

هكذا كانت خطة الجيوش البواسل فى الأسبوع الأول من افتتاح العام الجديد ، خطة التنقيب والتخريب . واقتطاع منطقة السويس من أرض مصر . واحتلال منطقة كفر أحمد عبده بتمامها وإجلاء ساكنيها كافة .

فأى امتحان امتحنته قلوب المصريين فى ذلك الزمان ! يشهدون على أعينهم ويحسون فى أبدانهم اقتطاع الثرى المصرى كما تبتر الأعضاء من الجسم الحى !

* * *

٨ من يناير = صورة فيلق من الفدائيين هبوا يتدربون القتال فى بيداء السويس ومعهم بنادقهم وقنابلهم اليدوية .

الرئيس السابق مصطفى النحاس يزور بطريرك الأقباط لتوطيد الأخوة بين عنصرى الأمة التى يكيد لها الإنجليز .

معركة بين الإنجليز وبين جندهم « الموريشان » تسفر عن قتل وجرح مائة بريطانى .

وزارة الخارجية الأمريكية توفد مبعوثين إلى السودان لزيارة الأقاليم والوقوف على الاتجاهات السياسية للشعب السودانى .

٩ من يناير = نسف معسكر الأغذية بالسويس والمحطة اللاسلكية بالاسماعيلية ـ تدمير الخط الحديدى البريطانى ومهاجمة سيارة وقتل ٦ من جنودها ، الإنجليز ينسفون كوبرى المعاهدة انتقاما من المصريين ويعتدون على جمرك الكوبرى ـ القائد « أرسكين » يردد قول القائد العام إن الإنجليز باقون فى القنال .

١٠ من يناير = مقترحات الملك ابن السعود لحل النزاع المصرى البريطانى ـ مهاجمة قافلة من ٢٠ سيارة بريطانية وقتل ١٩ وجرح ١٦ من ضباطها وجنودها ، ١٠٠٠ جندى و ١٠٠ دبابة يشتركون فى الحملة الإرهابية ـ هدم ٦٠ منزلا فى منطقة جنيفة ـ فقيد الوطن الطالب « عباس سليمان الأعسر » بكلية التجارة .

١١ من يناير = الإنجليز يطلقون مدافعهم على دار محافظة الاسماعيلية وعلى استراحة شركة القنال فى أثناء وجـــود مديرها ورئيس مجلس إدارتها .

١٢ من يناير = عرض مقترحات جديدة على مصر خلال عشرة أيام ـ أمريكا موقنة أن مصر لن تغير موقفها من الدفاع عن الشرق قبل الجلاء ـ ٤٠٠ جندى بريطانى تهاجم قرية أبى صوير ، الفدائيون ينسفون الخط الحديدى عند الأدبية للمرة الحادية عشرة .

١٣ من يناير = معركة عنيفة فى التل الكبير بين الإنجليز والوطنيين ورجال البوليس ـ قتل ٢٠ ضابطا وجنديا بريطانيا وجرح ١٢٠ ـ استشهاد ٦ من الفدائيين وإصابة ١٤ بجراح ، الفدائيون ينسفون خطاً حديدياً ويهاجمون قطاراً حربياً ويقتلون ٣ من حراسه ويجرحون ٤ منهم .

١٥٠ جنديا يحاولون احتلال التل الكبير - ١٠٠٠ جندى يهاجمون القرى بطريق أبى صوير - إصابة المستشفى العسكرى - تصدى الأهالى للقوات البريطانية . واشتداد المعركة وعبور البريطانيين ترعة الاسماعيلية على عائمات وإحراق قريتى الحمادة والمزارعة - سيارات الصليب الأحمر توالى نقل القتلى إلى أن أمر الجنرال « أرسكين » بوقف القتال - صورة لجنازة صامتة لشهيد الوطن بجامعة فاروق بالاسكندرية « عباس سليمان الأعسر » يتقدمها مدير الجامعة ووكيلها والعمداء والعلماء - رسالة مدير مكتب إحدى الصحف من لندن وفيها ما يلى : -

« نفت الدوائر الرسمية البريطانية رفض اقتراح غير رسمى كانت الحكومة المصرية قد عرضته يقضى بجلاء القوات البريطانية عن قنال السويس إلى قطاع غزة . وتتوقع الدوائر البريطانية المطلعة أن تقبل الحكومة أى مشروع معقول للجلاء عن منطقة قنال السويس ، بشرط أن يتم الاتفاق على صيانة المنشآت العسكرية فى قاعدة القناة »

الاثنين ١٤ من يناير = الإنجليز يعدمون ٧ من أسرى معركة التل الكبير رمياً بالرصاص - تجدد المعارك بين القوات البريطانية والأهلين ورجال البوليس فى التل الكبير . سقوط ٤ قتلى من الإنجليز وإصابة ٤٥ بجراح واستشهاد ٤ من الفدائيين وإصابة كثيرين بجراح .

صور نسف الخط الحديدى .

إعلان من الإخوان المسلمين عن استشهاد شهيدى الوطن المجاهدين الطالب « أحمد المنيسى » بكلية الطب والطالب « عمر شاهين » بكلية الآداب الاحتفال بتشييع الجنازة فى الزقازيق وفى مصر .

إعلان عن تشييع الجنازة من الإخوان المسلمين بمنطقة أبى حماد .

وهكذا انصرمت أيام الأسبوع الثانى من يناير باتجاهات أخرى فى السياسة والحرب .

أما فى السياسة فقد راحت وزارة الخارجية الأمريكية تحقق لحسابها وتستفقه الأمر فى السودان ، وتقدمت دولة عربية شقيقة تسفر بين الفريقين، وفى نفس الوقت أذيع فى لندن ما يشير إلى أنهم يقبلون أى مشروع معقول للاتفاق بشرط صيانة المنشآت فى القنال .

وأما فى الحرب فقد فقد الجيش البريطانى أعصابه وآدابه ، وأخذت فيالقه تتحرك بتشكيلاتها العسكرية ودباباتها وعاتماتها ، تهدم المنازل وتحتل المناطق ، يبلغ عددها الألف جندى والمائة دبابة بل وتطلق الرصاص على مقر الحكومة المصرية فى الاسماعيلية . .وتعدم الأسرى .!

وانتقل ميدان المعارك إلى منطقة التل الكبير وأبى حماد وأعلن عن استشهاد شباب الجامعات فى التل الكبير وأبى حماد . انتقل مركز الثقل إلى هناك . واتجه اليه قلب مصر وأسماع أمم الأرض ، تتسمع خفقانه من محطة الإذاعة خمس مرات ، وجه النهار وزلفا من الليل ، كما تستمع اليه كلما أذاعت أخبارها مرات ومرات سائر المحطات فى العالم .

وفى حين كانت جنازة شهداء الجامعة تسير فى طرق القاهرة . وكانت مصر تثأر لشهدائها الذين يلقون الشهادة فى الصفوف ، أو الذين أذيع أنهم لقوها فى أتون الأسر الإنجليزى ، حيث يجب لهم أمان الأسرى من المحاربين ، كان للسماء وحى يوحى .

الباب الثانى

١٤ من يناير

تعال النهار فى تخوم أهرام الجيزة يوم ١٣ من يناير حيث غادر « أحمد عصمت » بسيارته رهطا من أصدقائه ساعتين كاملتين دون أن ينبئهم بأسباب غيابه أو مكان احتجابه ، ثم رجع إليهم والشمس لم تختمر بعد بخارها ، فكروا راجعين إلى القاهرة .

وكانت منطقة الأهرام مكانا يتلقى فيه الفدائيون السلاح .

وقضى ساعات من الليل قبل أن يفىء إلى داره حتى إذا دخلها وآتوه عشاءه طعمه ، كما يطعم فى العادة عشاءه ، فى يسر وانشراح .

وحرر لأهله شيك بمبلغ خمسين جنيها مصرياً يتسلمونها من المصرف . ولما طلب عامله مفتاح السيارة لإعدادها للسير غداتئذ ، تبسم رافضاً وحبس المفتاح فى جيب قميصه ، وقصد مخدعه ، والمفتاح معه ، حتى إذا غدا الغد ، ركبها شعثاء من غبار الصحراء . فلم يظهر على ما تحويه أحد .

وأصبح ككل صباح ، فى حديث أهله واطلاع صحفه واستمتاع باللحظات الهنيئة التى يعيشها ، ثم غادر داره بعد إذ استقلت الشمس ، فى

ميعاده ، لم تبدر منه لأهله ولا لولده وهم يبرحون دارهم إلى مدارسهم ، بادرة تشى بشىء عزمه ـ فانطلق بسيارته راضياً مرضيا فى إشراق أمله ورجاء أهله ، إلى القاهرة ، حيث تسلم من مصرفه عشر جنيهات فى التاسعة صباحا .

ثم قفل راجعا إلى مطار ألماظة يتناول الشاى فى أمنة واطمئنان أثراً عنه ، كما وصفه فى الصحف زميل له شهده فى مقصف المطار .

ثم يمم طريق عين شمس فانحدر إلى قناة الاسماعيلية ، فبلبيس ، فأبى حماد ، بعد أن خلف إلى صهره ، وإلى مصر معه ، بأجيالها المتتابعة ، وصية الجهاد والاستشهاد .

أخى حسين

إنه حتى لوطن هو الذى حبب إلى سعاد الفداء

فداء الغائب لمتمر البغيضة . ذهبت اليوم مبرمتهم الهيئة أو جماعة . ذهبت اليوم بدافع الكاشى وإيمانه قوى . ذهبت اليوم مسرورا فرحا وكأنى ذاهب الى رحلة صيد مثل الرحلات التى كنا نقوم بها .

تعلم انك تأخذ الى كل مصر أنى شاب متزوج ولى ثلاثة أطفال ولى أم وأخواتى ومع هذا فقد ضحيت بنفسى ليعيشوا هم أحرارا فى بلدهم فالحرية لا تمنح ولكنها تؤخذ بأغلى التضحيات .

قال اللقاء فى كلتا الحالتين انه قد أوعدت

أخيك

أحمد

أمي حسين

إن حبي لوطني هو الذي حبب إلى سفك الدماء ... دماء الغاصب المستعمر البغيض ، فذهبت إليهم غير منتم إلى هيئة أو جماعة ، ذهبت إليهم بدافع إلهي وإيمان قوي . ذهبت إليهم مسروراً فرحا ، وكأني ذاهب إلى رحلة صيد مثل الرحلات التي كنا نقوم بها .

فإن مت فأعلن إلى كل مصري أني شاب متزوج، ولي ثلاثة أطفال، ولي أمي وأخواتي، ومع هذا فقد ضحيت بنفسي ليعيشوا هم أحراراً في بلدهم . فالحرية لا تمنح ولكنها تؤخذ بأعز التضحيات .

فالى اللقاء في كلتا الحالتين إن مت أو عدت .

أخيك أحمد

* * *

اقرأوا أيها الشباب هذه الكلمات فكلكم أخ لأحمد عصمت ، وكلكن له أخوات . وأذيعوا في مهاب الرياح الأربع ، أن الحرية لا تمنح ولكنها تؤخذ بأعز التضحيات ». وعندما يقدم الفتى منكم حياته لا يقدمها باسم حزب ولا باسم جماعة .. ولكن باسم أمكم الكبرى ... مصر ...

وأين الأحزاب والجماعات من أحمد عصمت ومن أي شهيد عندما يستشهد !

أين الأرضي من السماوي !

أجل أيها البطل: غير منتم لحزب أو إلى جماعة ، فقد كانت مصر وحدها قبلتك ، حيثما كنت وليت وجهك نحوها ، دون سواها .

ولا ضد حزب أو جماعة : فقد كنت كلك لمصر كلها ، وضد أعدائها كلهم . . . وفيء الظلال من أشجارك ، وجدران دارك ، شهداء على استبشاعك أن يغتال المصري أخاه المصري ، سواء أكان من هؤلاء أو هؤلاء ، أو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ولكن . إذا كانت لك زوج وأولاد وأم وأخوات . . فأين هم من مصر كلها ؟ ستهبها حياتك وأقل من ثلاثين عاما من العمر . وستهبك قلبها وأكثر من ثلاثين قرناً من الشكر . أو الذكرى .

والحرية لا تمنح لأنها الوجود الإنسانى الحق ، وهو لا يمنح . وإنما يحيا الإنسان بالجدارة ويبقى بالاقتدار وبالتضحيات. وفى موت الأحرار حياة الحرية .

وكلما حوربت الحرية اهتزت وربت ورواها دم الشهداء ، وخدمها الأعداء قبل الأصدقاء . وكانت صيحة الحرب عليها دعوة النصر لها .

والحرية لا تستجدى ولكنها تنتزع .

وإنما هى رحلة صيد تذهب اليها بجنان ثابت ، كأنما الصيد الذى تقر به عينك هو البذل الذى ستبذل به نفسك . وما كنت لتسفك دماء البشر . بل حبك لوطنك هو الذى حبب اليك سفك دماء المستعمر البغيض ، فذهبت اليه مسروراً فرحاً كما قلت ، وقد صدقت . لأنك قد صنعت .

لقد ضحيت بنفسك من أجلنا لنعيش فى بلادنا أحراراً ، فأصبحت من صناع التاريخ. وآباء الوطن . وأصبح اسمك حرفاً من أحرف الهجاء فى « نهضة منتصف القرن » .

ما أعوامك الثلاثون إلا أعوامها الثلاثون بعد ثورة سنة ١٩١٩ ، فحياتك هى عناصر حياتها قد سويت رجلا . وإذا كانت بقية حياتك خلوداً فى الرفيق الأعلى ، فستخلد الانتصارات المتلاحقة هذه النهضة ، وستخلد مصر ، خلود النيل على صفحات الأرض الطيبة التى كرمنا الله بها .

لقد تلقينا ـ جميعنا ـ وجودنا من يد مصر . ولم يعطها سائرنا شيئاً ، إلا أن يكون سياسة ، أو كلمات ، أو دعوات ، ووجدتنا مصر أحرص الناس على حياة .

أما أنت ، فكنت من أنت ، فى مواقفك الأخرى . تعاملت متعالياً حتى مع أمك الكبرى ! ستعطيها قدر ما أخذت منها . . انتقف على قدم المساواة معها .

سننقل للتاريخ منك هـــذا الكتاب ، بمثل ما تلقاه الحفظة والنقلة والخطباء والشعراء والكتاب والطلاب ، عاماً بعد عام ، ليكون لنا ولحفدتنا آية على الشجاعة وابتداع اليراع . لم يؤلف مثلها سفر فى نفس العام أو قبله بأعوام . ولا بلغ مبلغها من أفئدة الأمة كلام . بما فيها من الروعة والجلال . ومن المحبة وإنكار الذات . وبما فيها من الشعر والخيال ، ومن الواقع الذى ليس مثله واقع . وبما فيها من أم الكتاب فى فلسفة الحرية والاستقلال . . بل بما فيها من الحياة عند تضحية الحياة .

هذان السماوى والإنسانى معا ، لم يجتمعا فى التاريخ فى كتب كثيرة مثل كتابك .

وما التأليف ولا الرسالات بالطول أو بالعرض ، ولكن بالبلاغ النافع للجيل وما يعقبه من الأجيال .

ألا . . وما كان أنفعها آية تلك التى حفظها الشعب ، عن ظهر قلب ، مذ طلعت بها عليه صحف الصباح ، ورددها المذياع ، وتناقلتها قاعات الجامعات وساحات الجوامع .

وإذا كانت شجاعة الفكر هى الوليد البكر لشجاعة النفس ، فقد اجتمعت فى قلبك الشجاعتان ، كما اجتمعتا من قبل فى فئة قليله وردوا حياض المكاره ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من انتظر ليتم رسالته أو يموت دونها .

* * *

تلك كانت آخرة الكلمات التى جرى بها قلم أحمد عصمت ولعلها كانت

آخر ما يتردد فى وجدانه . فهى كمثل ما كان يجرى دائما على لسانه (إن مصر لا تنال الاستقلال إلا على شواطىء القنال) هى الكلمات التى صحبته ، وبرحت به وعذبته، عندما طوت عجلات السيارة الثرى المصرى إلى حيث المعارك الدائرة فى منطقة التل الكبير من أيام .

سار فى طريق الاسماعيلية مستأنيا ـ فلكم كان يؤثر الأناة ـ ومشى كما لم يمش أحد من قبله ولا من بعده ، إذ كتب بيده عن نفسه ما كتب فى اللوح المحفوظ على نفسه .

قصد بسيارته لا ليكر ويفر ، أو يلتمس النجاة ما استطاع . ولكن ليجابه الخصم فيبلغ غرضه . ويواجه الموت بذاته وإن كان لا يعود .

وبلغ شاطىء المجرى الذى ألف أن تسير سيارته عليه فى الأيام الخالية فى أرض خالية من العدو ، فاذا المكان ـ لأول مرة ـ تغزوه قوات إنجليزية حاشدة، عبرت اليه قنطرة عائمة، مدتها منذ ساعات .

فلقد فعل الفدائيون الأفاعيل بهم فى بكور الصباح ، حين كمنوا عند الظاهرية بين حمادة والتل الكبير لداورية مكونة من اثنى عشر جنديا وضابطا بملابس جنود المظلات . وما هم أن اطلعوا عليهم فأخذوهم أخذة رابية فقتلوهم كافة ، وغنموا سلاحهم وأوراقهم الشخصية التى كانت معهم وجهازاً اللاسلكى كان يحمله الضابط. وأقبلت فرقة المصفحات لنجدتهم فألقى عليها الفدائيون القنابل اليدوية ، وعطلت بعض سياراتها . وتمكن الفدائيون من الفرار بعد أن أصيب واحد منهم أصر على حمل جهاز اللاسلكى ، لكنه استطاع بالقنابل اليدوية أن يعطل السيارات المصفحة وينجو .

كانت القوات الإنجليزية تنقل قتلاها مذمومين مدحورين على القنطرة العائمة ، حين وصل أحمد عصمت ووراءه بضع سيارات منها سيارة نقل

ركاب كبيرة ملأى بالراكبين . فإذا بالسيارات المصرية تتوسط عسكر العدو أمام نقطة تفتيش استحدثها فى ذات المكان .

مكث أحمد عصمت فى سيارته حتى قدم الجند فقدم لهم جواز قيادة الطائرة وجواز سفره المصرى ، وكان يرتدى رداء الطيارين وعلى كتفيه جناحان ونصف جناح .

وكان يستصحب دائما مسدسين واحداً فى جيب ردائه وآخر كبيراً فى سيارته ، ولم يعرف على التحقيق ما كان فى صندوق السيارة الخلفى أو تحت كراسيها .

وطلب جندى بريطانى تفتيشه وتفتيش سيارته .

فرفض أن يفتشه ، وأصر الجندى ، وأصر هو .

واستعصم واستعلى على التسليم للجندى البريطانى بحق التفتيش فى أرض الوطن .

أيقن الجندى أنه يلقى سيداً ، فوق مستواه العسكرى ، بالأجنحة التى تعلوه ، ولغته الفصحى ، ولهجته العالية . بل كان فوق مستواه البريطانى ، والاستعمارى ، بل فوق كل مستوى ، بشخصيته التى بلغت ساعتئذ ذروتها ، وعنفوان عزتها وقوتها ، فى لحظة ميلاد البطل . . . فدعا الجندى القائد . فإذا هو قائد منطقة التل الكبير بتمامها ، الذى أطلقت عليه الصحف قائد مذبحة التل الكبير ، قد أقدمته

ومعه ياوره ، تلك القدمة هزيمة الصباح ومصايره التى كتبها عليه القدر .

فلما رمقه وقع فى نفسه أنها لفتة من السماء. فترجل من سيارته وتراجع إلى الوراء ، خطوات معجلات ، وارتقى سيارة نقل الركاب فدخلها وقذف حافظة نقوده وأشياءه قائلا لركابها « أعطوا ما فى هذه الحافظة لشخص مستحق » .

ثم شخص من فوره إلى القائد فى لحظات ، وتبادلا كلاما قصيراً ، سريعاً ، لم يسمعه الشهود وإنما شهدوا الانفعال من قائليه . لكن الذى دار فى الخيال كان معانى كثيرة ، يسير علينا أن نتصورها :

فياله من صيد ثمين ، ساقته السماء لصياد مكين .

يا لها من قربى لله أن يستشهد فى عدو الله ، عدو الوطن .

يا له من لقاء لمصر المستميتة المستبسلة فى أبى حماد ، يمثلها طيار شاب ، بجيوش الغزاة . من البغاث المستنسرة ، ممثلة فى قائد المنطقة الأعلى ، قائد المذبحة .

يا له من ظفر مادى لرجل واقعى من أدواته الهنـــدسة ، وحسبان الحساب .. وبين قواعده قول « كارليل » مؤرخ الأبطال :

« ليس واجبنا الأول هو التطلع إلى ما يتراءى لنا غامضاً من بعيد.. ولكن واجبنا الأول هو صنع ما هو واضح بين أيدينا » .

بل من قواعده قوله هو ذاته « إن انجلترا لا تحفل إلا بالضربات المباشرة » .

وها هو القائد كله بين يديه ، بنفسه وشخصه ! وهو رأس الجيش يعدل الآلاف فيه وعشرات الآلاف . والضربة فيه « ضربة أستاذ » تصيب انجلترا فى صميم قلبها .

ولقد آن للصفعات التى وجهتها مصر إلى وجه الاستعمار أوان تتويجها بضربة قاضية ، وحان له ، هو ، تتويج حياته الملأى بآيات الشجاعة بتاج يكلل سابق أفعاله وخصاله ، يسعى بنفسه إلى مفرقه لو سدد الله يده .

إنها النسور المصرية ، والأسود المصرية ، فى ذلك المكان وفى ذلك الزمان . ومصر لا يخذلها مثلها ـ وما هو إلا مصر بشمائلها وفضائلها ـ وما « البريجادير » إلا إنجلترا فى عنفوان عدوان الاستعمار .

وإذا كان سيداً من سادات مصر وأروحهم آلا ومالا ، وفضلا وبذلا ، فلا سيادة عنده إلا للشجاعة ، وقد حان تقديم برهانها .

فليكن السيد الجدير بفضائل حياته ، العظيم فى محياه ومماته .

ليقم بعمله فى سبيل الله لعله أن يحط الخطايا عن المخلفين الذين لم يجاهدوا كما تحمل السيد المسيح خطايا البشر .

لم يعد الفتى المرجو فى أهله أو جماعته ، بل أصبح أمل أمته ـ ولم يعد المطلوب منه أن يتزعم رهطاً من الأخيار . بل أصبح المطلوب منه أن يتزعم الشهداء الذين كان آخرهم ، فكأنما كتب عليه أن يكون كابرهم . وها هى ذى الفرص جميعا تلقى بنفسها بين يديه ، والفرص لا تمر مر السحاب . ولكنها تمضى كومضات البرق ..

كان يطن فى أذنه نشيد الأنشاد عنده « إن مصر لا تنال الاستقلال إلا على شواطىء القنال » . تلاحق سمعه هتافات أمه الكبرى ـ مصر : « هنا . قريبا من هنا . وقريبا من أيامنا . قدم روحه باسمى بطل الجيش المصرى « الامير الاى محمد عبيد » ولواؤه الذين آثروا الفناء على أن يصعدوا فى الوادى فى ١٣ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ عند التل الكبير . وقد حان لك أن ترفع ذكرى كمثل ما رفع ذكرى فى نفس المكان وضد نفس العدو ... »

إنه يقف فى جفن الردى والردى يقظان ، وما فى الموت شك لواقف . . . ولكن ما الموت ؟ الموت هو الفناء ، وما أزخر الحياة فيما ليس فانياً ، وإن فى الأحياء لموتى هم ملايين الأضعاف للأحياء من الموتى ، والتضحية الكبرى فى سبيل الوطن عمل واحد ، يراه الصنديد بطولة ، ويراه الرعديد مغامرة . ويراه المؤمنون استشهاداً ، ويراه عباد الحياة مجازفة ...

والناس بين هاتين النهايتين كالناس بين قطبى الأرض ، على درجات طول وعرض ، مختلفات من القرب والبعد ، بين منطق الإنسانية العالية ، وبين منطق الذين يعيشون ليطعموا . ويتكلموا .

وما عمر الحيـــاة إلى جوار الذكرى ، إلا كعمر الإنسان إلى جوار الإنسانية . وأين أسماء الذين تدحرجوا على كرة الأرض من عهد آدم إلى اليوم ، من أسماء الأنبياء والشعراء والعلماء والهداة والأبطال

* * *

لم يكن البطل غريبا فى الميدان الذى فتح له ، ولا كان أقل من فرصته . بل كان من مستواها . . . وعندما تصنع يد القدرة الصنيع النابه تقدر الرجال بمقـــدار الفعال ، فيتواءمون ويتلاءمون ، وتغدو العظائم كفؤها العظماء .

تراءت أمامه رؤى التاريخ الذى كان من حفاظه ورواته . فبدا له أن مصر وانجلترا تتصاولان ، وتلاقت ظروف الزمان والمكان ، فى موقع أعده القدر . من بطولات أهـــله فى السودان وهى حاضرة فى ذهنه ، وبطولات « محمد عبيد » وهى حاضرة فى مكانه ، فاذا التاريخ المصرى المجيد قد تلاقى فى بقعة خالدة ، فصار صفا من ورائه ، حيث العدو صف من أمام .

وإذا هو الذى ينهد من الخطوط المصرية إلى هؤلاء الإنجليز الذين برزوا له .

فليبارزهم مبارزات على وحمزة وعبيدة بين الصفوف ، إذ يلتقى الجمعان فى الزحوف . . . وليصرخ فى مصر فى وجه العدو صرخات « عمر بن الخطاب » فى وجه « أبى سفيان » : « لا سواء . قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار » .

وليقذف فى وجه بريطانيا بكلمة مصر الأخيرة . فان تسمعها من أحد كما تسمعها من لسان بطل : « لقد جربنا سياستنا معكم فكانت تنازعاً وفشلا . وجربنا سياستكم معنا فكانت قهراً وخديعة . فلم يبق لنا معكم إلا سياسة واحدة هى « أن ترحلوا ، وإلا فإنها الحرب من كل طبقات الشعب » . فأما نحن فسنموت لنحيا . وأما أنتم فإلى عذاب غليظ . سنحاربكم بما بقى فينا من دم لم تستصفه بعد وحوش الاستعمار . بأيدينا فإن قطعت فبأشلائنا . وبالسلاح . فإن عجزنا فبالحصى وبالحجارة . بأنقاض المعاهد التى تخربونها ، والمعابد التى تضربونها ، والقرى والدور . وعلى الشواطىء والمزارع والرمال وفى كل مكان . وبكل شىء . فإما رددنا إلى مصر كرامتها . وإما رددنا للسماء وديعتها . والله أعلى وأجل » .

لا جرم إن ذلك ومثله كان حديث نفس البطل . ومن عجب أن تجد العمل الجليل فى حياة الإنسانية عملا عادياً فى حياة رجل ! !

فلقد صنع أحمد عصمت فى هذا المقام العظيم العالى ما يصنعه فى المقام البسيط العادى . .

فلو قد سئل من قبل فى غرفات داره عما يصنع غيره فى مثل موقفه لأجاب ، فى اتزان ، وهدوء جنان ، كالجواب عن مسألة من مسائل الحساب ، بأن يصنع ما سوف يصنع . . . وهو فى التنفيذ أبرع وأروع . تسعفه الدقة الهندسية والاتزان العاطفى والاقتدار العملى ، على صنع الصنيع النموذجى للواجب ، مع الإتقان ، والاطمئنان ، ونسيان ذاته .

وكان رامياً لا يشوى

فتوافق الفريقان ، وواتاه المسدس الذى يحمله فى توفيق وتسديد . فبدر البريجادير برصاصتين فى قلبه فخر مضرجا بدمه ، وثنى بالثنتين فى قلب ياوره الضابط فصرعه كمثله ، وأطلق فى نفس الوقت الثنتين أخريين على الجندى البريطانى . فتدهده الثلاثة صرعى يخورون . . لم تخطىء رصاصة واحدة مستقرها ومستودعها .

الحادث الذى استشهد فيه البطل احمد عصمت كما حكته رسالة الآتين . وفى اليمين صورة الشهيد

احمد عصمت .. الشهيد المثالى !

ولم يكد الثلاثة يقعون لوجوههم ، ويخلدون إلى الأرض حتى أحس البطل المصرى أنه قد أدى رسالته وناجى ربه كما ناجاه موسى عليه السلام « وعجلت إليك رب لترضى »

وانتصرت روح مصر فى الثل الكبير .

ولو استأخر أجل البطل بعد ذلك لحظة من الزمان لعاش في غير مكانه ، وبعد أوانه ، ولما كان في طليعة الرعيل الأول المشتاق إلى الجنة ، ولعاش كما يعيش الرجال العاديون ملايين وملايين ، ينتظر الموت على الفراش الوثير في المضاجع .

أجل. وصدق رسول الله « لن يعمل شيء قبل حله أو يؤخر شيء عن حله » . ولكل أجل كتاب .

والذي يبقى بعد أيامه كالذي يجيء قبل أيامه ، كلاهما يفقد عنصر الزمن من حسابه ، فيفقد قواه ومعناه . كالصفر تحيت الأعداد كانت إلى جواره ، أو الصفر قبل أن تكون إلى جواره أعداد .

أبلس الجند الشاكي السلاح ، وبهتوا ، فخاصوا حيصة الوحوش ، ولم يجسر واحد ولا جماعة منهم على التقدم إليه حتى تصعد روحه إلى عليين .

وتفتحت أبواب الجنة للشهيد. فطغت هتافات الترحاب به على أصوات مدافع القوة البريطانية التي تفتحت ! فصعد بروحه الطاهر إلى الرفيق الأعلى إلى جوار « الطيار في الجنة »[1] أول وآخر من لقبه الرسول « ذا الجناحين » : « جعفر بن أبي طالب »[2]

ومات أحمد عصمت وسلاحه في يده ...

وليست الهزيمة أن يموت ، وإنما كانت الهزيمة أن يستسلم .

وفتش البريطانيون الشجعان ملابسه وتبشوا سيارته كما أرادوا. ولكن بعد أن خلفها لهم . وولوا مولولين بقتيلين وجريح هو البريجادير ، نقل إلى المستشفى العسكري وأعلنت وفاته بعد أيام .

---

(١) من خطاب الأمام علي بن أبي طالب إلى معاوية بن أبي سفيان .

(٢) (كان الذي رأيتم أحزنني قتل أصحابي حتى رأيتهم في الجنة إخوانا على سرر متقابلين ورأيت في بعضهم إعراضا كأنما كره السيف ورأيت جعفرا ملكا ذا جناحين مضرجا بالدماء مصبوغ القوادم) حديث شريف

وحمل ١٤ من يناير اسم « أحمد عصمت »

ومن أولى بأيام التاريخ من « أحمد عصمت »

« أعلمتم قبل موسى من يد قذفت فى وجه فرعون عصاها »

« وطئت ناديه صارخة شاه وجه الرق يا قوم وشاها »

« ظفرت بالكبر من مستكبر ظافر الأيام منصور لواها »

« القنا الصم نشاوى حوله ورماح الهند لم تصح ظباها » (١)

* * *

وتعلم العالم كثيراً على أحمد عصمت ، وتعلم الإنجليز :

تعلم الإنجليز ، والعالم معهم ، أن المدافع التى فتحت أفواهها على البطل المصرى لم تكن علامة القوة بل كانت آية الانخذال ، فلو كان فيهم رجل واحد شجاع لتقدموا اليه بعد أن فرغ رصاص مسدسه ليأسروه .

وتعلم الإنجليز ، والعالم معهم ، فى ثرى أبى حماد ، أن المصرى إذا لقى الإنجليزى بل القائد الإنجليزى ، وجها لوجه ، ورجلا لرجل ، بل لرجال ، كانت الدولة لنا وكانت الدبرة عليهم .

وتجلت لهم آية المستقبل فى علاقاتنا معهم : أن هذ الشعب — عندما يدعو الداعى — معتورهم بكل خافية من السلاح وبادية ، وأن بنيه قد أعدوا للأمر عدته تتبارى فيها كل الجماعات ، وأن الآباء كالأبناء ، وأن الموظفين كالطلاب كالعمال كالزراع كالمصريين قاطبة ، قد أجمعوا المسير إليهم ، وأن أيام السلم ، إن كانت حسوما نحسات عليهم ، فستكون أيام الحرب من نار جهنم . وأنهم يستطيعون أن يصنعوا كل شىء بالرماح — كما قال تاليران — إلا أن يستقروا فوق شباها .

---

(١) شوقى فى رثاء سعد زغلول

وتعلموا حيث يجب أن يتعلموا ، فى ميدان المعركة الذى بلغوه دون طعان حقيق بعد أن ردهم الجيش المصرى مقبوحين فى هزائم تترى غرب الدلتا : أن ميدان المعركة الأخيرة لهم قد أضحى هنا .

لكن القادمين اليه فى هذه المرة هم المصريون ، مستشهدين ، مقبلين من ديارهم ، لا الإنجليز مستعمرين ، مستسخرين ، من بعيد... ولن يكون معهم الخديو نفسه فى قصر « رأس التين ». ولن يكون للخديو مندوب مع جيشهم الغازى فى صحراء القنال ! ! . . ولن تبقى « خيالة سان جورج » أو الذهب الإنجليزى ، ظهيراً لهم فى ارض الوطن.

وتعلمت مصر : أن . الحرية لا تمنح ولكنها تؤخذ بأعز التضحيات »

المسدس المصرى الذى لن يكف عن الانطلاق

لم تتعلمها كلاما — فقد أتخمت كلاما — ولكنها لمستها بيدها أعمالا، ورجالا ، من لحم ودم ، ورصاصاً يتكلم .

تعلمت مصر : أن التضحية فى سبيلها لاترتجى من جيل دون جيل ، أو طبقة دون طبقة . وأن على كل فرد من بنيها ، قسطه الحق من الوفاء لها والبذل فى سبيلها ، وأنها إذا عزمت أمرها وأجمعت رأيها تفتحت لها الأبواب إلى الانتصار .

وتعلم من لم يكن يعلم : أن قد أنزل الذين بطروا من أهل اليسار من صياصيهم ، وهم جامون رواء ، إلى صفوف الشعب . وقيل لهم : « إن الذى له فى الوطن أكثر، عليه للوطن أكثر ، وإلا فإنها الهاوية » .

وتعلمت مصر : أن إنجلترا لا تهتز قدر ما تهتز للضربات المباشرة . ويوم يستيقن الإنجليز صدق جهادها سيخرون إلى الأذقان سجداً .

* * *

بلى ... ضرب أحمد عصمت نفسه مثلا خالداً . فسجل بالطهور من دمه دستور المبادىء التى اعتنقها وطالما دعا لها ، مبدءا مبدءا ، فيالها من مبادىء صادقة ، ويالله من رجل صادق فى الحيا، صادق فى الممات .

والناس لن يصدقوا داعية بمقاله . وإنما يصدقون الذين يصنعون .

* * *

لم ينشب الإنجليز أن انقشعوا عن المكان ، وحملت عربة الإسعاف جثمان البطل وكأنها تحمل إلى مصر كلها أعلى قيمها المعنوية مجسدة فى رفاته الغالى .

وعادت سيارة نقل الركاب وما وراءها من سيارات إلى الزقازيق يروى راكبوها فى التحقيق ، وللشعب ، وللصحف، أحاديث البطولة التى سعدت حياتهم بها، وطير الراديو المصرى أنباءها ، فاهتزت بها وبأصدائها

أسلاك البرق وموجات الإذاعات فى الخافقين ، مثنى وثلاث ورباع وخماس ، أياما وليالى .

وعرف الفدائيون ممن كانوا فى ذلك المكان إذ شهدوا صورته فى حافظته التى خلفها ، أنه الطيار الذى مكث يختلف إليهم زمانا ، فتنادوا للفداء وتعاهدوا على الثأر .

قال البعض إن أحمد عصمت قد هاجته عبارات البريجادير إذ كان يصر على نبش سيارته وإن لسان البريجادير قد اشتد عليه وعلى وطنه .

بل قيل إن يده قد امتدت إلى وجهه ، فأبى البطل المصرى أن يفرض عليه الغاصب قانونه — ففرض عليه قانون الرجولة والشجاعة والوطنية المصرية ، ليجعل منه ومنها حديث الدنيا ... وقد فعل . كما يفعل البطل .

وقال آخرون إنه قد هاجه تفتيش الإنجليز للنساء ، وهن يغضضن من أبصارهن ، وهم يصنعون بهن ما تمنعهم الإنسانية الدنيا أن يصنعوه ، مثلما مثلوا بالموتى وما صنعوا بالأسرى

وقيل إن القائمين على خطط الفدائيين كانوا يعلمون بوجود البريجادير فى ذلك المكان فأعدوا له ما استطاعوا من قوة ، كمثل ما أعدوا من قبل للبريجادير « إكسهام » فى منطقة الاسماعيلية ، وكلف أحمد عصمت تنفيذ الخطة ، فصنع فى أبى حماد ما عجز عنه غيره فى ظاهر الاسماعيلية .

ولمل فى خطابه ما يشـــير إلى أنه قد ذهب إلى هنالك وفقا لخطة موضوعة ، وضعها وحده أو مع غيره .

وقيل إنه كان فى طريقه الى التل الكبير ليوزع السلاح الذى كان يحمله ، ورجالا ستة كانوا فى سيارة نقل الركاب فى جلاليب بيض ، رجعوا بعد استشهاده الى الزقازيق . ولقد وفد على داره فى الغـــداة وفود من الفدائيين بالشرقية ، فروى بعضهم أخباره بتفصيل ، لكنهم

لم يعودوا إلى داره لتعاقب الأحداث التى تعاورت على الوطن بعد ٢٦ من يناير ، كما أفاض فى ذكر أسفاره للتل الكبير وأبى حماد ، زعماء الفدائيين الذين وكلوا بتشييع جثمانه فى المستشفى بالزقازيق .

ولو تمكن منه الإنجليز بعد تفتيش سيارته لغنموا ما فيها من السلاح ولأسروه ، فما أحسنوا إساره ، وهو قد قرأ فى صحف الصباح - ١٤ من يناير - أنهم أعدموا سبعة من أسرى معركة التل الكبير رميا بالرصاص .

سلم ركاب سيارة النقل حافظة نقوده المحققين وفيها ثمانية جنيهات وستون قرشا بقيت لديه من عشرة الجنيهات التى تسلمها فى الصباح من المصرف .

وحمل الى المستشفى الأميرى فى الزقازيق . وكانت بطاح الشرقية جميعها ترثى الشهداء بتشييع الجنازات ، وتلاوة القرآن فى السرادقات ، وأبت الزقازيق إلا أن تحتفل به فى المستشفى الأميرى عندما وصل ، وعندما فصل ، بهتاف الفدائيين : « الله أكبر الله أكبر » « والنصر لمصر » . وبترديد ذكرياته ، وأحاديث زياراته .

ومر جثمانه ببلبيس فكانت فى جوف الليل تؤبن شهداءها حتى بلغ القاهرة بعد منتصف الليل .

فلما كانت الغداة خرجت مصر ، بل برزت مصر ، فى تشييعه ، تحرض على القتال ، وكأن جثمانه ملفوفا فى أعلامها ، قد أصبح وأضحى علم قيادتها .